

"لا بد من الكف عن الدعوة لمقاطعة فرنسا"

يحترم النموذج الفرنسي كونه القيم دون أن يؤلب المجموعات بأنواعها ضد بعضها البعض. لذلك لا يحق لعاقل أن يقول أن هذا البلد يضطهد الإسلام. هذا ما تؤكد مجموعة من المثقفين المسلمين في مقال نشرته جريدة "لوموند"، من بينهم الصادق بالوصيف، شمس الدين حافظ و إيفا جانادان.

لوموند - 31/10/2020 على الساعة 15h02 محين على الساعة 07h09

إن الدعوة لمقاطعة المنتجات الفرنسية من قبل جهات في بعض البلدان تبدو غير مفهومة، صادمة وغير عادلة. إذ أن هذه الدعوة تمثل عملية استبعاد من شأنها أن تفرض في الواقع الخطأ الذي كان من المفترض أن تصوبه. أي عاقل يجروء على القول أن فرنسا تضطهد مواطنيها المسلمين؟ لا أحد سوى ربما أولئك الذين يريدون زرع بذور الفتنة داخل المجموعة الوطنية الفرنسية.

لا بد أن يعم الوفاق وتسود الوحدة داخل المجموعة الوطنية الفرنسية أكثر من أي وقت مضى، الآن وهي ضحية سلسلة من الهجمات يعجز المرء عن وصفها، تلفنا جميعنا في الحزن والحداد. إننا نحن مسلمو فرنسا وغيرها من دول البحر الأبيض المتوسط ندعو إلى الهدوء والتعقل.

هناك موضوعان متميزان، أولهما ذلك الانفعال الذي أثارته الرسوم الكاريكاتورية للنبي وتصريحات السلطات الفرنسية في هذا الشأن. وثانيهما ما جاء من تعليقات على لسان الرئيس إيمانويل ماكرون في خطاب تناول فيه مؤخراً مسألة الانفصالية الدينية. لنتمتع في كل منهما على حدة.

الرسوم الكاريكاتورية للنبي: يندد أصحاب دعوات المقاطعة هذه بالرسوم الكاريكاتيرية للنبي على أنها مُدنية ومهينة. ونحن كذلك، كاتبو هذا النص والموقعون عليه، نرى أنها مبتذلة وصادمة. ولكن التجديف في فرنسا لا يدخل تحت طائل القانون، ويمكن إذن التعرض له بالنقد لا بالمنع. إن حرية التعبير محفوظة منذ ثورة 1789، كما ينص عليه الفصل 10 من إعلان حقوق الإنسان. ويضع القانون حدوداً واضحة تمنع التلب والتحرير على الكراهية، كما في العنصرية مثلاً. حينئذ يكون لكل مواطن حرية الانتقاء إلى القضاء إن اعتبر أن هذه الحدود قد تم تجاوزها، لا استناداً على تهمة التجديف، ولكن دفاعاً على احترام الكرامة البشرية، ذلك بقطع النظر عن الديانة المعنية، كاثوليكية كانت أم بروتستانتية، أم يهودية، أم إسلامية. لكن، ومهما يكن من أمر، لاشيء يبيح استعمال العنف، لا في القانون الفرنسي ولا في الإسلام.

ما يخالف رسالة القرآن

إننا نتفهم أن يشعر بعض المسلمين بالإهانة والانفعال من هذه الرسوم الكاريكاتورية، ولكننا نذكر أن الإسلام يرفض كلياً تأليه أو تقديس أي شخصية بشرية. من ذلك أن النبي محمد نفسه كان يُصرّ على أنه مجرد رسول. و قد كان في كثير من المرات يتعرض للسخرية ولتهمة الجنون أو الافتراء ولغيرها من الشتائم من طرف مناهضيه. ولم يدعُ الله ولو مرة واحدة إلى قتل مرتكبي هذه الاستفزازات، بل حرض على تبني سلوك حكيم، صبور في مواجهة العدوان: " وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ " (سورة 15، 97-99). ثم إن الله يحث المسلمين الأوائل على تجاهل هذه الهجمات و التحلي بالفطنة: " وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ... الْآيَةَ " (سورة 4، 140). و لا يأمر الله بأن يُنتقم له، بل يوصي بأن لا تقطع الصلة بين المؤمنين والمستهزئين وأن أن يبقى التركيز على ما يوحدهم. لا على ما يفرقهم. هكذا إذا يتعارض القتل بحجة الدفاع عن الرسول والعنف والدعوات للمقاطعة بوضوح

مع التعاليم القرآنية، ولا تعود كلها إلا إلى دوافع دنيوية وسياسية بعيدة كل البعد عن عمق الإسلام الروحي والخُلقي.

ثم ومن ناحية أخرى فإن خطاب الرئيس ماكرون حول الانفصالية الدينية، وخلافا لما قيل عنه هنا وهناك لا يتناول الإسلام بالانتقاد. بل ينتقد الإسلاموية، وهي تشويه للإسلام. فبانتقاده للأيديولوجية الإسلامية يبرز احترامه للإسلام، وهو فارق أغفلته ربما ترجمة الخطاب إلى العربية.

وخلافا كذلك لما قيل هنا وهناك، لم يدع الخطاب إصلاح الإسلام أو تحريفه. فرئيس الجمهورية الفرنسية يحترم كل الديانات. كما أنه يحترم موروثا فرنسيا أقامه قانون يرجع إلى 1905، أسس للفصل بين الكنيسة، بين كل الكنائس، والدولة. لا تتدخل الدولة في فرنسا الفرنسية (ملاحظة من فريق التحرير) في شؤون الكنيسة بأنواعها.

أفق كوني

في خطابه يوم 2 أكتوبر/ تشرين الأول، أكد الرئيس ماكرون من جديد جملة من الترتيبات تتعلق بالنظام العام وبحياد إدارة الخدمات العمومية، كما أوضح جملة من القرارات تخص قانون الجمعيات وتنظيم المدرسة، وهما عماد ميثاقنا الجمهوري الفرنسي وملتقى روافده. وأوضح أيضا وبالخصوص ضرورة بناء إسلام في فرنسا، إسلام مستنير، متحرر من كل تأثير أجنبي، تكون تمويلاته مهيكلة وشفافة، ويتضمن تماما البعد الثقافي في الإسلام كحضارة، دون أن يتعدى ذلك قيد أنملة على الإسلام كدين.

في خطابه المجدد المؤسس، أراد الرئيس ماكرون أن يذكر أنه على الفرنسيين أن يعلموا أنهم ينتمون جميعهم إلى الجمهورية الفرنسية، ولا سيما منهم أبنائها المحرومون أو المحتاجون إلى أمن اقتصادي، اجتماعي أو ثقافي. كما أكد الرئيس أيضا أنه لا مكان في فرنسا للعنصرية. ولا للتمييز بأنواعه. ولا للانفصالية.

ملاحظة لا بد من أخذها بالاعتبار

بما أن الجمهورية في فرنسا "لا تتبنى أي ممارسة عقديّة" فإنها تتكفل بحماية جميع المعتقدات والعقائد. فحسب الفصل الأول من دستور سنة 1958، تُعتبر "فرنسا جمهورية غير قابلة للتجزئة، علمانية، ديمقراطية واجتماعية. فهي تضمن المساواة بين المواطنين أمام القانون، دون أي تمييز على أساس الأصل أو العرق أو الدين، وتحترم في ذلك جميع العقائد". وفي حين كان الجنرال ديغول يعتبر الخصوصية العلمانية بديهية لا تستحق التنصيص عليها، فإن محرر الدستور، ميشيل ديبريه، كان على ما يبدو، مصرا على هذا التنصيص. وبعد أكثر من سنتين عامًا لنا أن نقدر مدى ضرورة ذكر هذا المفهوم بالنسبة لفرنسا، وهي إحدى الدول القلائل في العالم التي ثبتت المساواة في شعارها الوطني، والتي تعمل جاهدة على أتباع هذه المثل.

لذلك فإن اتهام فرنسا بأنها تنتهك حرمة ضمائر المسلمين، تهمة باطلة.

ونحن، المثقفون الممضون أسفل هذا النص والقادمون من آفاق جد مختلفة، نشهد لصالح صدق هذا الموقف الفرنسي وعلى مشروعيته. وما قولنا هذا بالكلام أجوف. و بما أننا نعلم ما يجري في العالم، لنا أن نحكي عبارة شهيرة فننتابها فنقول: "رُبّ سعيد كأنه مسلم في فرنسا..." ذلك أن الإسلام دين ضمير يتوجه مباشرة إلى الفرد، فيكون كل مسلم إذن "كنيسة لذاته" لا يدين إلا الله وحده. وقد جاء في القرآن التأكيد على قيمة الفرد: "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ" (18، 29). و بما أن الإنسان لا يخضع إلا

لربه فإنه في جوهره في حل من كل وصاية، في صورة من التحرر الكوني مطابقة للمثل الجمهوري الذي يكون به الأفراد محررين من عبادة أو استعباد غيرهم من البشر.

لذلك فإن تهمة فرنسا بأنها تنتهك حرمة ضمائر المسلمين، تهمة باطلة، بما أنها تقود إلى إدانة قانون الإنسان على أنه يناقض قانون الله. إلا أن الحرية الدينية في فرنسا تبقى القاعدة: "لا ينبغي أن يتعرض أحد للمضايقة من أجل آرائه، وإن كانت دينية، ما دام التعبير عنها لا يخل بالنظام العام الذي ينص عليه القانون"، هذا ما يؤكد إعلان حقوق الإنسان والمواطن لسنة 1789. فالمنظومة السياسية والمنظومة الدينية منفصلتان عن بعضهما البعض في فرنسا، مع الاحترام التام لحقوق المواطنين الأساسية. والفصل بين هاتين المنظومتين يسمح في ذات الحين باحترام التسامح عند المؤمنين و بالحد من ادعاءات بعضهم ممن يخيل إليهم أنهم يتكلمون نيابة عن الله (وبالتالي في وضع المنافس له).

النموذج الجمهوري

بوصفنا ملاحظين للمجتمع الفرنسي، نعترف له بقدرته أحيانا على طرح تساؤلات متقدمة عن زمانه مع وعيه بأبعادها الكونية. من الناس من قد يعتبر هذه القدرة تتسم بشيء من الغرور، ولكننا لا نشاطر هذه المآخذ. إن السماح لكل فرد بأن يقرر مصيره بنفسه، مع انصهاره في المجمع الجمهوري يمثل في رأينا روعة النموذج الجمهوري كلها وصعوبته أيضا، دون أن يتعارض مطلقا مع المعتقد الحميم لكل منا.

فبقطع النظر عن تنوع التعابير الثقافية، فإن النموذج الفرنسي يحترم كونية القيم، دون تأليب المجموعات في ما بينها... وهذا ما يؤكد أيضا القرآن حين يحدثنا عن منزلة الإنسان المتفردة: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (49)، (13). يذكرنا الرئيس ماكرون، حسب الأسس الجمهورية، بأننا مختلفون بعضنا عن بعض فيما نحن متساوون بيننا، ضامنا بذلك كونية التفكير متجنبنا في نفس الوقت الوقوع في ذلك التنسيب الثقافي الذي يؤدي إلى القهر. لأجل ذلك ندد بكل قوة بالهجمات الإرهابية وأعمال العنف ومظاهر الكراهية، وسنناضل من أجل الحرية وندافع عن المساواة ونعزز الأخوة، متبعين فكرة الفيلسوف آلان: "من قبيل الوهم أن نروم بناء مجتمع فقط مع من نوافقهم في كل شيء، وذلك هو التعصب بعينه". إذ أن الأخوة تصنع الرابط بين الحرية (أي استقلاليته) والمساواة (أي واجبي الخلق في احترام الآخر).

وفي الختام نقول أن مقاطعة المنتوجات الفرنسية تعني مقاطعة فرنسا وأن مقاطعة فرنسا تعني الجهل بحقيقة مثلها وتجاهل احترامها للديانات، ديانة النبي محمد و غيرها. وندعو إلى الإعراض عن مقاطعة فرنسا والسعي مجددا في طريق الحوار والإنصات والاحترام المتبادل.

الموقعون: **فريد عبد الكريم**، كاتب وممثل - **محمد بجرافيل**، باحث ومفكر إسلامي - **الصادق بالوصيف**، رئيس جمعية "الإسلام في القرن الحادي والعشرين" - **شمس الدين حافظ**، عميد جامع باريس الكبير - **إيفا جانادان**، المندوبة العامة لجمعية "الإسلام في القرن الحادي والعشرين" - **حكيم القروي**، مؤسس الجمعية المسلمة من أجل إسلام فرنسا - **خلدون نبواني**، فيلسوف - **طارق أوبرو**، الإمام الخطيب لمدينة بوردو - **هاشم صالح**، كاتب - **يوسف الصديق**، فيلسوف ومختص في انترولوجيا النص المقدس.